# المقدمة

## بقلم : م.س. هاندلر

في يوم الأحد الذي سبق إعلانه رسميا الاستفاق من جماعه إلايجا محمد، حضر مالكوم إكس إلى منزلي لمناقشة خططه ولإعطائي بعض الأوراق المهمة. ولم تكن زوجتي، مسز هاندلر ، قد قابلته قبل هذه الزيارة. قدمت زوجتي لنا القهوة والكعك بينما كان مالكوم يتكلم في ذلك الصوت الهادئ المهذب الذي كان طبعه في الجلسات الخاصة وكان واضحاً لي أن شخص مالكوم قد بهرها. لقد ملأت شخصيته غرفة جلوسنا.

كان موقف مالكوم هو موقف من قد وصل إلى مفترق طرق وعليه أن يختار ، تدفعُه قوى داخلية. كانت ابتسامة عذبة تُضيء وجهه من آن لآخر – ابتسامة تقول عدة أشياء. لقد كان واضحاً لي أنه يود أن يقول شيئاً ولكن كبرياءه وشعوره يمنعانه من ذلك. وشعرت بأنه لم يكن واثقاً أن بإمكانه الهروب من ذلك العالم الغريب الذي سحره.

بعد خروج مالكوم بدت مسز هاندلر ساهمة تفكر ثم رفعت رأسها فجأة وقالت:

– أتعلم، لقد كان ذلك مثل تناول الشاي مع فهد أسود!

أدهشني ذلك الوصف فالفهد الأسود حيوان أرستقراطي في دنيا الغابة. إنه جميل وخطير معاً. وكان لمالكوم مظهر خارجي وثقة داخلية بالنفس وكأنما ولد أرستقراطيًا كما كان مظهره ينبئ عن خطورة. لم يتمكن رجل أسود من إثارة الخوف والحقد في نفس الرجل الأبيض مثلما فعل مالكوم لأن الرجل الأبيض شعر أنه أمام عدو لدود لا يمكن شراؤه بأي ثمن، رجل ملتزم بدون حدود بقضية تحرير الرجل الأسود في المجتمع الأمريكي وضد دمجه في ذلك المجتمع.

كان أول لقاء لي مع مالكوم في مارس ١٩٦٣ في المطعم الإسلامي الذي يتبع المعبد رقم ٧ في شارع لينوكس. وكنت حينها قد انتدبت من صحيفة نيويورك تايمز للتحري عن الضغوط المتزايدة داخل المجتمع الزنجي.

وكانت تجربتي، كمخبر لمدة ثلاثين عاماً في شرق وغرب أوروبا قد علمتني أن قوى الصراع الاجتماعي المتفاعلة تكون دائماً مقبورة تحت السطح وتُظهر نفسها بطرق مختلفة قبل مدة طويلة من انفجارها وأن هذه القوى تظهر أول ما تظهر في قوة

الفكرة قبل أن تتبلور في أشكال تنظيمية تتحدى السلطة في وضح النهار. يُحمد لعلماء السياسة والاجتماع في أوروبا إيمانهم بقوة الفكرة في الصراع الاجتماعي أما في الولايات المتحدة فإننا نخلط ما بين القوة العددية لجماعة ما والدعاية التي يلقاها زعماء تلك الجماعة وبين القوى التي تبذر بذور التغيير الاجتماعي. وفي دراستي للضغوط المتزايدة داخل المجتمع الزنجي كان عليَّ أن أبحث ليس عن آراء زعماء حركة الحقوق المدنية المعروفين فحسب بل عن آراء من هم على حافة الحركة أي من هم تحت الأرض كما يقولون. لهذا السبب بحثت عن مالكوم إكس الذي وصلتني بعض من أفكاره بواسطة دعاة الاندماج من الزنوج، وكانت أفكارهم قد بدأت تتأثر بفكر «القومية الزنجية» الوليد.

لم أدر ماذا أتوقع وأنا في انتظار مالكوم. لقد كنت الأبيض الوحيد في ذلك المطعم والذي كان مؤسسة يديرها سود مهذبون أنيقو الملبس يعملون في صمت. كانت هنالك إشارات «ممنوع التدخين » معلقة على المرآة اللامعة. قُدمت لي القهوة ولكني كنت غير مطمئن في هذا الجو الصامت ... وأخيراً وصل مالكوم وإذا أنا أمام رجل طويل وسيم ذي طلعة مهابة وبشرة برونزية. نهضت لأحييه ومددت له يدي فمد لي يده ببطء شعرت معه أنه يجد صعوبة في أخذ يدي ولكنه تكرم بذلك وهو الكريم. بعد ذلك فعل مالكوم شيئاً غريباً سيكرره في كل مقابلة لنا في مطعم عام في نيويورك أو واشنطن. سألني مالكوم إن كنت أمانع أن لو جلس مقابلاً باب المطعم وذلك طلب سمعت مثله كثيراً في عواصم أوروبا الشرقية. كان مالكوم حذراً يصر على رؤية كل من يدخل وحينها عرفت إلى أي مدى كان يعيش في خطر.

تحدثنا لأكثر من ثلاث ساعات في ذلك اللقاء الأول. كانت أفكاره عن الرجل الأبيض مدمرة ولكنه لم يشعرني للحظة أنه كان يقصدني شخصيًّا أو يجعلني أنا - كفرد أبيض - أشعر بالذنب.

كان يرجع سبب تأخر الرجل الأسود إلى الرجل الأبيض ويقول أن حركة الدمج العنصري ما هي إلا خدعة ويصر على أن زعماء حركة الحقوق المدنية لو استمروا في كفاحهم فسيتحول الصراع إلى صراع دموي لأن الرجل الأبيض لن يوافق على الدمج التام. دافع مالكوم عن دعوة المسلمين السود «للانفصال» في دولة مستقلة قائلاً : إنها الطريقة الوحيدة التي سيحقق بها الزنوج ذاتهم ويطورون ثقافتهم ويضعون الأسس لمجتمع منتج يحترم نفسه، ولكنه لم يحدد أين ستقام تلك الدولة . كان مالكوم يرفض أن يرى استحالة قبول الرجل الأبيض بانفصالهم من الولايات المتحدة ، ولكنه كان يرى حينها أنها الحل الوحيد. كان يهاجم المسيحية لأنها في

نظره أداة استرقاق ويرى أن الكهنة الزنوج هم لعنة المجتمع الأسود يستغلون الرجل الأسود لأغراضهم بدلاً من العمل على فك إساره. وهم بذلك مجرد أداة في يد الرجل الأبيض الذي يصر على ترك الرجل الأسود في وضع المسحوق.

في هذا اللقاء سعى مالكوم أيضاً لتعريفي بعقلية الرجل الزنجي وحذرني في أكثر من مرة من أن أصدق تصريحات قادة الزنوج عن صدق شعورهم نحو الرجل الأبيض. قال لي إن غريزة البقاء درّبت الزنوج على إخفاء شعورهم الحقيقي وأن الرجل الزنجي يقول فقط ما يعتقد أن الرجل الأبيض يحب أن يسمع وأن مهارتهم في إخفاء شعورهم وصلت درجة لا يستطيع معها حتى الزنوج أنفسهم معرفة صدق ما يقوله الزنوج الآخرون. إن فن إخفاء الشعور عند الزنوج يقوم على فهمهم لنفسية الرجل الأبيض وعاداته في حين أن الرجل الأسود وعقليته ظلا كتاباً مقفولاً أمام الرجل الأبيض الذي لم تكن له رغبة في فهم الزنوج على أية حال.

كان عرض مالكوم لأفكاره واضحاً ومرتباً مع ما فيه من صدمة للأبيض الغر، غير أن أكثر ما كان يزعج في حديثه هو إيمانه بآراء إلايْجا محمد عن تاريخ الإنسان ونظرية الوراثة التي اخترعها ليبرهن على عظمة الرجل الأسود فوق الرجل الأبيض وهي نظرية مذهلة لإغراقها في السخف.

بعد هذه المقابلة تبين لي أن مالكوم في الحقيقة شخصيتان – شخصية عامة وأخرى خاصة. كان حينما يظهر على شاشات التلفزيون أو قاعات الاجتماعات يحدث أثراً رهيباً وكان في إعداده ودفعه للحجج ومنطقه شيء من الجدل الفاوستي الشرير. كان ذلك يفزع المشاهدين من البيض ويحطم معارضيه من السود إلا أنه كان يلقى استجابة ملحوظة من المستمعين السود مما جعل مخالفيه من السود يتهربون من مشاركته في النقاش. المستمعون البيض كان ينتابهم خوف ويشعرون أنهم في خطر ويرون في مالكوم الشيطان نفسه، أما في وسط الزنوج فقط كانت هنالك مجموعتان انجذبتا إلى مالكوم وهما الجماهير المسحوقة وتلك النخبة من الكتاب والفنانين الذين بدأوا يظهرون على المستوى القومي. أما الطبقة الوسطى من الزنوج «المؤسسة» فقد كانت تخاف وتحتقر مالكوم مثلما احتقرها هو.

يبجل فقراء الزنوج مالكوم كما يبجل الأطفال الضياع صورة جدهم. كان التمشي مع مالكوم في شوارع هارلم دائماً تجربة فريدة تهز الشعور إذ كان الكل يعرفه وتراهم ينظرون إليه في حياء. أحيانا يهرع إليه بعض اليافعين طالبين توقيعه. كان يبدو لي أن حبهم له نابع من كونه ما زال رجل الشارع مع أنه شخصية قومية ولمعرفتهم أنه لن يخونهم أبداً. لقد عانى الزنوج من خيانات كثيرة ولكنهم رأوا في مالكوم رجل رسالة. كانوا يعرفون عن تاريخ إجرامه وسجله في السجون الشيء

الكثير لأنه لم يخفه أبداً. كانوا يتطلعون إليه بإعجاب لأنه رجل أتى من قاع القاع الذي ما زالوا هم فيه وانتصر على نفسه وجرمه وجهله ليصبح الزعيم القوي والخطيب، وبطلاً شهماً لا يعرف المساومة. وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم لا يشاركونه معتقداته الدينية فإنهم وجدوا في طهارته تزكية لحياتهم. لقد طهر مالكوم نفسه من كل الأمراض التي كانت تنخر في جسم الجماهير الزنجية: المخدرات، الخمور، والتبغ، دعك من الممارسات الإجرامية. كانت حياته الشخصية نقية وطاهرة طهارة غير متاحة للعامة ، أما الخلاص النفسي فقد حققه مالكوم في حياته وكل المجتمع الزنجي كان يعرف ذلك.

على شاشات التلفزيون وفي المحاضرات العامة كان مالكوم يعرض مآسي وآمال وجماهير الزنوج المسحوقة بطريقة لم تكن الجماهير تستطيعها. كان يؤدي لهم بمهاجمته للرجل الأبيض ما لا يستطيعون أن يفعلوه لأنفسهم، إذ أنه كان يتحدث بعنف وغضب يحمل مآسي دهور . أما الكُتَّاب والفنانون الزنوج فقد أجلوا فيه الصدق القاسي الذي يعرض به قضيتهم ورفضه للمساومة وبحثه الدائب عن هوية الزنوج التي حطمها الرجل الأبيض بإحضاره لهم من أفريقيا . كان الكُتَّاب والفنانون الزنوج يرون فيه أداة البعث المنتظر والرجل الذي أعاد الثقة بالنفس للملايين المقهورة. في إحدى المرات كان عدد منهم بمنزلي وكنا نتحدث عن مالكوم وكان إخلاصهم له يهز الشعور . قال أحدهم: « لقد قاسينا من الخيانات طويلاً لكن مالكوم لن يخوننا أبداً» .

تعرضت نظرة مالكوم نحو الرجل الأبيض إلى تغيير ملحوظ في عام ١٩٦٤ أدى إلى انشقاقه عن إلايْجا محمد وعن نظرياته العنصرية. كما أدى صعود مالكوم السريع على المستوى القومي إلى احتكاكه برجال بيض لم يكونوا الأشرار الذين تخيلهم. كان الطلب شديداً على محاضراته في جامعات الساحل الشرقي، وكان قد ظهر على منابر كثيرة في الفترة القصيرة التي أصبح فيها شخصيته قومية، وكان يتحدث بشيء من الدهشة والاحترام عن استجابة الطلاب البيض لحديثه. والعامل الثاني الذي أدى إلى التحول في تفكيره كان الشك المتزايد الذي بدأ يساوره عن حقيقة إسلام إلايْجا محمد والذي تطور إلى قناعه بزيادة معرفته وتجاربه كما بدأ بعض ممارسات إلايْجا محمد الدنيوية تتنامى إلى علمه وصدمته بعنف. وأخيراً قام مالكوم برحلة طويلة إلى مكة والدول الأفريقية حديثة الاستقلال بفضل مجهودات مكتب الجامعة العربية في الولايات المتحدة وبعد زيارته الأولى إلى مكة تيقن مالكوم أنه لم يعرف الإسلام بعد.

أنهت طلقة مغتال حياة مالكوم قبل أن يبلور موقفه الجديد والذي كان يتمثل

أساساً في أن الزنجي عضو كامل في المجتمع الأمريكي على خلاف نظرية إلايْجا محمد. وصل مالكوم إلى منتصف الطريق في بلورة موقفه نحو أمريكا وعلاقة الرجل الأسود بالأبيض. لم يعد يحقد على أمريكا بل على تلك الجماعات في أمريكا التي تمثل العنصرية المفضوحة في الجنوب والعنصرية المستترة في الشمال. كان هدف مالكوم هو أن يرتفع بالنضال الزنجي إلى درجات جديدة موجهة نحو العنصريين في الشمال والجنوب على السواء. وبدأت مشكلة الزنوج التي كان أسماها مالكوم مشكلة الرجل الأبيض، تأخذ أبعاداً جديدة في ذهنه في تلك الشهور الأخيرة من حياته.

وحتى النهاية كان مالكوم يسعى إلى إعادة الصلات المقطوعة بين الزنجي الأمريكي وثقافته الإفريقية. كان يرى في ذلك بعثاً للهوية الجماعية ووعياً بدور الزنوج التاريخي وفوق كل شيء شعوراً ذاتيًا وثقة بالنفس كان قد حطمها الرجل الأبيض.

أدبيات السيرة الذاتية في أمريكا ملأى بأمثلة عديدة لرجال عصاميين بنوا أنفسهم بأنفسهم ولكن ليس من بينها واحدة مؤثرة مثل سيرة مالكوم وكشهادة على قوة الخلاص والشخصية البشرية تبقى سيرة مالكوم وكأنها وحي!